تجليات الإنزياح في الصحيفة الباقرية ومستدركاتها "دراسة أسلوبية"

الباحث
حسين الساعدي
جامعة أمير المؤمنين الأهواز
Saedi_h96@yahoo.com
الأستاذ المساعد الدكتور
عاطي عبيات
جامعة فرهنگيان، جمهورية إيران الإسلامية

الملخص:

يأتي هذا البحث لكشف النقاب عن جماليات نصوص الإمام الباقر عليه السلام عموما، والصحيفة الباقرية خصوصا والتعريف بها باعتبارها من أبرز النصوص الدينية والأدبية في تاريخ نقد الأدب العربي؛ وللوصول إلى هذه المهمة اخترنا منهجا من مناهج الدراسات الأسلوبية للنصوص، ألا وهي أسلوبية الإنزياح يتميز أسلوب الإنزياح بالتواصل بين المبدع والمتلقي؛ لأنه يبرز إمكانات المبدع في استعمال الطاقة التعبيرية الكامنة في اللغة، لإيصال رسالته إلى المتلقي بكل ما فيها من القيم الجمالية، فينزاح الأسلوب عن نمط الأداء المألوف المعتاد ليحقق ما يريده من أهداف يعجز عن توصيلها التركيب العادي، وفي هذا الجهد المتواضع سعينا إلى رصد الإنزياحات الواردة في الصحيفة الباقرية. تحاول هذ المقالة من خلال المنهجين: الوصفي والتحليلي دراسة الإنزياح في نصوص الإمام الباقر عليه السلام من التشبيه، الأستعاره، المجاز والكناية... والتعرف علي الصحيفة الباقرية.

الكلمات الدليلة: الإمام الباقر عليه السلام،الصحيفة الباقرية، الانزياح، تجليات، الأدب العربي.

المقدمة:

النصوص الدينية التي وصلتنا من جانب أئمة أهل البيت عليهم السلام بحر زاخر بأنواع العلوم والمعارف، تحتاج إلى من يرغب في الحصول علي لآلئه ودرره أن يغوص في أعماقه؛ ومن هذه الدرر التي أودعت فيها جمال أسلوبها ولغتها المتميزة. الصحيفة الباقرية إحدى النصوص الدينية التي جمعت بين دفتيها أدعية الأمام الباقر عليه السلام ومناجاته وابتهالاته

وخطبه القيمة. فإنّ هذا الكتاب مملؤ بالكلمات والعبارات المرصوفة المصفوفة التي تمّ حشدها بغزارة وجمعها بمهارة لتعبر عن مقصد واحد كبير ألا وهو توجيه الناس إلى الله جلّ جلاله، في أسلوب يخلب لبَّ القارئ ويجذبه إليه. فالإمام الباقر عليه السلام في صحيفته قد تطرّق إلى أساليب كثيرة من الفنون الأدبية التي أخرجت كلامه عن النمط المعتاد المألوف إلى لغة إبداعية تلفت انتباه القارئ. هذا هو الأسلوب الذي يسمّيه النقاد في دراسا ت الأدب الحديث بالإنزياح ويعرّفونه بأنّه ((هو آلية الخروج عن سلطة اللغة المألوفة وعن تكرار مظاهرها، والدخول في مملكة حرية الكلام وإبداعيته، إنّه إنتقال الخطاب من جماعة اللسان ونمطية الأساليب إلى فردانية فعل المتكلم وحيوية الأسلوب وهو إنتقالٌ بلغة الأدب إلى حيز الدهشة والمفاجأة وله دور جماليٌ يسهمُ في لفت انتباه القارئ، ومن ثمّ التأثير فيه وإيصاله إلى الإمتاع واللذة وتوصيل الرسالة التي يريدها الخطاب)).

نظر إلى الصحيفة الباقرية ههنا من نافذة جديدة، ونقوم بدراسة أدعيتها من منظار انزياحية الأسلوب، علي أساس تقسيم ((جان كوهن)) للانزياح. وفي سبيل ذلك استفدنا من مصادر متعددة منها كتاب ((الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية)) لمحمد ويس و((الأسلوبية والأسلوب)) للمسدي و((الأسلوبية)) لأبو العدوس. واعتمدنا المنهج الأسلوبي، لأن الدراسة الأسلوبية قادرة علي تحليل النص للوصول إلى البنية العميقة. وكذلك استخدمنا أيضا المنهج الوصفي ـ التحليلي لمعالجة الظواهر الأسلوبية في النص. وفي هذا المسير نسعي للوصول إلى جواب عن الأسئلة التالية: هل يوجد في الصحيفة الانزياح عن المألوف؟ هل يؤثر الانزياح علي المعني؟ ما الهدف من الانزياح؟

أسئلة البحث

يسعي هذا البحث إلى الإجابة عن عدة أسئلة رئيسية وهي:

١- أي نمط من أنماط الانزياح يعد أكثر انتشاراً في الصحيفة الباقرية؟

٢- ما هي جمالية أنماط الانزياح والغرض الرئيسي من العدول؟

٣- ما هو معيار التنزيل للخروج عن المتداول والمألوف؟

فرضيات البحث

أمّا فرضيات البحث فهي - إنّ الانزياح التركيبي (النحوي) بما فيه من التناوب والحذف، والالتفات والتقديم؛ يعدّ أكثر انتشاراً في الصحيفة الباقرية - إنَّ معيار الانزياح في هذه الأدعية هو النحو والبلاغة وكثيرا ما نري أن الصحيفة الباقرية تعدل عن القوانين المسلّمة والمألوفة في هذه العلوم. - يختلف الغرض الجمالي للانزياح باختلاف السياق الذي وردفيه؛ لكن غرضه الأساس هو حث المتلقي علي المتابعة والتفكير وتشكيل لوحة فنية قائمة علي التصوير.

مفهوم الإنزياح:

في البداية نشير إلى تسمية هذا المفهوم. وعلينا أن نعلم بأن الأسلوبيين أطلقوا علي هذا المفهوم تسميات مختلفة. وهذا الاختلاف ناتج عن الاختلاف في مفهوم المصطلح نفسه، فالمصطلح الفرنسي لهذا المفهوم هو((Lecart)) الذي سمّاه فاليري ((الانزياح)). وهناك مصطلحات أخري منها، ((التجاوز)) ((Labs)). وأطلق سبيتزر علي هذا المفهوم ((الانحراف)) ((Ladeviation)) وكوهن ((الانتهاك)) ((Leviol)) وسمّاه جاكبسون الإنجليزي ((خيبة الانتظار)) ((Deceived expection)) (أبو العدوس،٢٠١٠م، ١٧٧)

وقد فضّل الباحثون مصطلح الانزياح علي باقي المصطلحات الموجودة، لأنه يعدّ ترجمة دقيقة وموفّقة للمصطلح الفرنسي ((Escort))(محمد ويس،٢٠٠٥م،٥٦). والانزياح خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر لغرض قصد إليه المتكلم، فيظهر هذا الخروج بأشكال مختلفة، فقد يكون خرقًا للقواعد، أو استخداماً لما ندر من الصيغ أو خرقاً للمعيار النحوي. وقد يسمّي هذا النوع بالانزياح النحوي(بليت، ١٩٩٠م، ١٧٥).

أهمّ ميزة لأسلوب الانزياح ((التواصل بين المبدع والمتلقّي، لأن الانزياح يبرز إمكانات المبدع في استعمال الطاقة التعبيرية الكامنة في اللغة، لإيصال رسالته إلى المتلقّي بكلّ ما فيها من القيم الجمالية، فينزاح الأسلوب عن نمط الأداء المألوف المعتاد ليحقّق ما يريده من أهداف يعجز عن توصيلها التركيب العادي))(مرادي،٢٠١٢م، ١٢٣، ١٠٥). وعلينا أن ندقّق في أن هناك انزياحات ليس لها تأثير أسلوبي كأخطاء التراكيب النحوية والعكس، أي وجود أثر أسلوبي دون وجود انزياح(بليت، ١٩٩٠م، ٥٨).

أنواع الإنزياح

هناك أشكال مختلفة للانزياح حتى أوصلها بعض الباحثين إلى خمسة عشر شكلاً وأهم الإنزياحات:

١- الانزياحات الموضعية والشاملة: الانزياح الموضعي يؤثر علي نسبة محدودة من السياق، والانزياح الشامل يؤثر علي النص بأكمله.

٢- الانزياحات الداخلية والخارجية: الانزياح الداخلي يظهر عندما تنفصل وحدة لغوية عن القاعدة المسيطرة علي النص، والانزياح الخارجي يظهر عندما يختلف أسلوب النص عن القاعدة الموجودة في اللغة المدروسة.

٣- الانزياحات السلبية والايجابية: الانزياح السلبي يتمثل في تخصيص القاعدة العامة وقصرها علي بعض الحالات، والانزياح الإيجابي يتمثل في إضافة قيود معينة إلى ما هو قائم بالفعل.

٤- الانزياحات التركيبية والاستبدالية: الانزياح التركيبي يتصل بالسلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية عندما تخرج علي قواعد التركيب، والانزياح الاستبدالي يخرج علي قواعد الاختيار للرموز اللغوية.

وأفضل هذه الأشكال، تقسيم ((جان كوهن)) للانزياحات، وهو النوعان الأخيران اللذان تنطوي فيهما كل أشكال الانزياح(مرادي،٢٠١٢م،١٠٩).

الانزياح في التراث الإسلامي:

في التراث الإسلامي نجد إشارات ولمحات لمفهوم العدول مع اختلاف المصطلح، وعدم دراسته وتحليل مكوناته، فقد أجمع الدارسون المسلمون قديما علي أن أسلوب القرآن العظيم خارج عن المألوف من كلام البشر، وهذا يبين تنبه العرب إلى هذه الظاهرة الأسلوبية بمفهوم مغاير. إن ادّعاء ورود "ظاهرة الانزياح" من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية ليس بصحيح وهذا هو ظاهر الأمر؛ لأنّ هذا الفن في التراث النقدي الإسلامي القديم كان موجودا وكذلك بالشكل الشائع والبارز، بحيث قد أدرك النقاد المسلمون القدامى والبلاغيون فنيّة الإبداع، وحددوا بذلك مستويين في اللغة: الأول مستواها المثالي في الأداء

العادي وهو كلام النحاة واللغويين، والثاني: مستواها الإبداعي الذي يعتمد علي اختراق هذه المثالية وانتهاكها وهو كلام البلاغيين.(عبدالمطلب،١٩٩٤م،٢٤٨) نجد أن هؤلاء الدارسين، وبخاصة المفسرين قد تجاوزوا التعامل العاطفي مع النص إلى التعامل الفعلي الذي يقوم علي معالجة النص من زاوية التركيب والوقوف عند المستويات الدلالية للألفاظ في سياقها الجديد، وعلاقة كل ذلك بالكلام العربي، كما خاضوا في مباحث بلاغية وأسلوبية.(تحريشي،٢٠٠٠م،٦٥) وكان هذا العدول له مسميات عديدة تدعم مقولة عدولهم ك"التوسع" و"الالتفات" و"الضرورة الشعرية". (بوالحواش،٢٠١٢م،٣٤) فشعراء العرب اهتموا بظاهرة الانزياح في أشعارهم منذ قديم العهد بمصطلحات أخري؛ ومن أقوي المصطلحات القديمة تعبر عن مفهومها هو العدول"، وهذا قد ورد في أكثر كتب النقد واللغة والبلاغة، مثل كتاب الخصائص لابن جني (ت٣٢٢هـ)، ومفتاح العلوم للسكاكي (ت٣٩٥هـ) ودلائل الإعجاز للجرجاني (ت٤١٧هـ) وغيرها من المؤلفات. (ويس،٢٠٠٢م،٣٧) وقد كثر ورود كلمة "الخروج" في دراسات الإعجاز القرآني مثل قول الأصمعي: ((إن الشيء إذا فاق في حسنه قيل له خارجي)) (ابن جني، لاتا: ٤٨) أما الخروج عند ابن جني فهو خرق للأصول، قال: ((لقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف وليس الشيء من ذلك إلا عن دليل عليه وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب من معرفته)) (المصدرنفسه،٣٦٢) أما الرماني فقد استعمل مبدأ "نقض العادة" ليبين الأسلوبية النوعية للقرآن، فقال: ((إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة منها: الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتي القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة.)) (الرمّاني،لاتا،١٠٢) في حين استعمل عبد القاهر الجرجاني مصطلح العدول في وصف الكلام الأدبي إلى جانب القول الشعري العادي واللحن فقال: ((اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم إلى قسمين: قسم تعزي المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزي ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول للكناية والاستعارة والتمثيل الكائن علي حد الاستعارة، وكل ما فيه علي الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب إلا وهو إذا وقع على الصواب و علي ما ينبغي، أوجب الفضل والمزية.)) (الجرجاني،١٩٧٨م، ٤٢٩و٤٣٠).

معيار الانزياح:

من أهم الأسئلة التي تطرح عن الانزياح هو هل هناك حد بين لغة المعيار ولغة العدول؟ يعرّف المعيار علي أنه النظام اللغوي الذي ينبغي علي المتكلم إتباعه ليحقق أداءً لغوياً فصيحاً، واعتماداً علي هذا المعيار تحدّد درجة الفصاحة عند كل فرد، ويطلق على هذا المعيار الذي يخرج عنه العدول بمسميات كثيرة منها:((الاستعمال الدارج والمألوف والشائع والوضع الجاري ودرجة الصفر والسنن اللغوية.))(سامح ربابعة،٢٠٠٣م،٣٥) إن مصطلح "درجة الصفر للكتابة" الذي أطلق عليه رولان بارت هو مفهوم حديث يلتقي مع حديث القدماء عن "الأصل" و"أصل الوضع" وإن درجة الصفر صفة تطلق علي الخطاب الذي تدل فيه كل كلمة علي ما وضعت له في أصل اللغة.(المصدرنفسه،ص٥٥) أما لغة العدول فليس لها حدّ إلا أن يؤدّي إلى تحطيم العلاقات بين المكوّنات اللغوية لتصل إلى الإبهام وذلك بمخالفة قوانين اللغة مخالفة صريحة، يعتقد ليج أن اللغة الأدبية لها الأكثر تعقيداً بالنسبة إلى اللغات الأخرى.(صفوي،١٣٧٣ه.ش،٣٨) إنَّ الموضوع الآخر في الانزياح الذي تجدر الإشارة إليه هو أنه لا يعدّ كل انحراف أسلوباً، إذ لا بد أن يصاحبه وظيفة جمالية و تعبيرية وكما قال شفيعي كدكني يجب علي الانزياح أن يتّصف بميزتين: الأول: مراعاة الأصل الجمالي: إن الغرض من الأصل الجمالي هو أن هذا التجاوز يسبب شعوراً جمالياً لدي القارئ والثاني: الاتصال:"Communication"إنه يتيح للمخاطب فرصة ليفهم احساس الكاتب في حدود الشعر.(شفيعي كدكني،١٣٨٦ه.ش،١٣) اتخذت ظاهرة الانزياح أنماطا مختلفة من ناحية تنوعاته أو تحققاته العينية في النصوص الأدبية ولها الأشكال المختلفة؛ لذا، إن المقالة هذه تستفيد من رؤية جون كوهن وتصنيفه وتعتمد علي أهم أنماطها وهو المستوي الاستبدالي "الدلالي" والمستوي التركيبي فسنجد أنّ الانزياح في كل محور من المحورين "التركيب والاستبدال" سيخالف قاعدة محدّدة، وهذا مخطّط يوضح عتبات البحث.

١) الانزياح الاستبدالي

تمهّد البلاغة العربية أرضاً خصبة للانزياحات فيما يسمّي الخروج عن مقتضي الظاهر أو العدول عن النمط الأصلي. هذا النوع من الانزياح الذي يتعلق بجوهر المادّة اللغوية يشمل معظم مباحث البلاغة من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، لأنها جاءت علي غير المعاني التي وضعت لها أصلاً(أبو العدوس،٢٠١٠م،١٨٧).

أ. التشبيه

إن في التشبيه البليغ وإخفاء وجه الشبه وانتزاعه من متعدد وتداخل الصورة التشبيهية، أثراً في ظهور معانٍ جديدة وتحويل معان بسيطة إلى معان عميقة ومركبة. والانحراف من المعاني المألوفة لفت انتباه المتلقّي إلى دلالات جديدة وغريبة. ومن أمثلته في الصحيفة الباقرية، تشبيه بليغ جاء في دعاء مكارم الاخلاق حيث يقول: ((فَاشْهَدْ يا كافِيَ الشَّهادَة بِاَنّي اُشْهِدُك بِنيه صِدْق بِاَنَّ لَك الْفَضْلَ وَالطَّوْلَ في انْعامك عَلَىَّ مَعَ قِلَّه شُكري لَك فيها يا فاعِلَ كلِّ اِرادَه صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَ آله وَطَوِّقْني اَماناً مِنْ حُلُول السَّخَط لِقلَّه الشُّكر وَاَوْجِبْ لي زيادَهً مِنْ اتْمام النِّعْمَة بِسَعَة الْمَغْفِرَة اَمْطِرْني خَيرَك فَصَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله وَلا تُقايِسْني بِسُوء سَريرَتي وَامْتَحِنْ قَلْبي لِرِضاك وَ اجْعَلْ ما تَقَرَّبْتُ بِه اِلَيك في دينك لَك خالِصاً وَ لا تَجْعَلْهُ لِلزُوم شُبْهَه اَوْ فَخْرٍ اَوْ رِياءٍ يا كَريمُ)) (قيومي اصفهاني، ١٣٨١هـ.ش،٢٦) نري فهذه العبارة تشبيه بليغ شبه طلب معالي الأمور ومكارم الأخلاق بالمطر النعمة ووجه الشبه فيه المغفرة فنري الانزياحية في هذا التشبيه، حيث المشبه هو الانعام طلب معالي الأمور ومكارم الأخلاق معنوي والمشبه به الذي هو المطر وهذا التشبيه في غاية الحسن لمخالفة الكلام العادي وغرابة التشبيه.

ب. الأستعارة

تمثّل الاستعارة عماد الانزياح الاستبدالي. ويجب أن يكون هذا النوع من الاستعارة متباعد الطرفين في الصورة ولا يكون وجه الشبه فيه قريباً ظاهراً. وقد رأي أولمان ـ وهو أحد علماء علم الأسلوب ـ أنَّ ((من الخصائص الأساسية للاستعارة أن يكون **[**الطرفان**]** فيها بعيدين عن بعضيهما بعضاً إلى درجة ما، وأن يكون تشابههما مصحوباً بالإحساس بـ **[**تخالفهما**]** وأن ينتميا إلى مجالين مختلفين من مجالات التفكير))(محمد ويس،٢٠٠٥م،٥٦)؛ فعلي هذا الأساس نشير إلى مقتطفات من الاستعارة المنزاحة في الصحيفة الباقرية.

١. الأستعارة التمثيلية

إنّ الإمام محمد الباقر عليه السلام في دعائه الإستغفار لمن أراد محو الذُنوب ((يا رب يا رب فإن بن فلان عبدك شديد حياوه منك لتعرضه لرحمتك لاصراره علي ما نهيت عنه من الذنب العظيم يا عظيم يا عظيم ان عظيم ما اتيت به لا يعلمه غيرك قد شمت فيه القريب والبعيد والسلمني فيه العدو والحبيب والقيت بيدي اليك طمعا لامر واحد وطمعي في ذلك

رحمتك فارحمني يا ذا الرحمة الواسعة وتلافني بالمغفرة والعصمة من الذنوب اني اليك متضرع اسالك باسمك الذي يزيل اقدام حملة عرشك ذكره وترعد لسماعه اركان العرش إلى اسفل التخوم اني اسالك بعزة ذلك الاسم الذي ملا كل شيء دونك الا رحمتي باستجارتي اليك وباسمك هذا يا عظيم اتيتك بكذا وكذا ويسمي الأمر الذي قد آتي به فاغفر لي تبعته وعافني من اتباعه بعد مقامي هذا يا رحيم))(قيومي اصفهاني، ١٣٨١هـ.ش،١٩) فشبّه صورة الوقوع في المعاصي بصورة ((لتعرضه لرحمتك لاصراره علي ما نهيت عنه من الذنب العظيم)) علي سبيل الاستعارة التمثيلية، فظاهر علي الباحث الدقيق كيف صوّر هذه المعاني العقلية بصورة المنزاحة الحسية.

٢. الاستعارة المكنية:

نشير في هذا القسم إلى عبارة قالها الإمام محمد الباقر عليه السلام:((يا مَحَلَّ كُنُوزِ اَهْلِ الْغِنِي - وَيا مُغْنِي - اَهْلَ الْفاقَهِ مِنْ سِعَهِ تِلْك))(المصدرنفسه،٤٢) الانزياحية في هذه العبارة تتجلّي في((مَحَلَّ كُنُوزِ)) اذ شبه محل كنوز لطلب رفع الفقر ويتضاعف جمال هذه الصورة المنزاحة عندما ندرك التلاؤم الحاصل من جناس في(غِني و مُغْنِي)

٣. الاستعارة المصّرحة

إن الإمام عندما يدعو الله سبحانه وتعالى لطلب الرزق يطلب أن حسن المعيشه (اَلْبِسْنِي الْعافِيهَ) مخاطباً له((اَللّهُمَّ اَلْبِسْنِي الْعافِيهَ حتى تُهَنِّئَنِي الْمَعيشَهَ، وَارْزُقْني مِنْ فَضْلِك ما تُغْنيني بِه عَنْ سائِرِ خَلْقِك، وَلا اَشْتَغِلُ عَنْ طاعَتِك لِبَشَرٍ سِواك.)) (المصدرنفسه،٤٤) يتجلي في هذه العبارة التلاؤم والجمال بين المفردات في البنية السطحية والوصول إلى المعني المقصود في البينة العميقة. شبه المعيشة بلباس العافية فالستعارة له لفظ الْمَعيشَهَ، تصريحًا وقرنها بذكر تُهَنِّئَنِي الذي هو من لوازم المستعار ترشيحًا. فكذلك ظهر التلاؤم بين المفردات في حين لا يخفي الانتقال من المعني الظاهري للّفظ إلى المعني المقصود.

٤. المجاز

إنّ المجاز المرسل ضرب آخر من ضروب الانزياح الاستبدالي، إذ انزاح الكلام من معناه الحقيقي إلى المعني المجازي بعلاقاته المختلفة. فمثل هذه الصورة الانزياحية يظهر في كلام الإمام (حيث يقول: يا واسِعا بِحُسْنِ عائِدَتِه، وَيا مُلْبِسَنا فَضْلَ رَحْمَتِه.)

(المصدرنفسه،١٨) يظهر من المعني المعجمي وهو مُلْبِسَنا فَضْلَ رَحْمَتِه إلى المعني الدلالي والمجازي وهو الإستغفار لمن أراد محو الكبيرة.

٢) الانزياح التركيبي

يحدث الانزياح التركيبي من خلال طريقة في الروابط بين المدلولات في العبارة الواحدة أو في التركيب والفقرة(٢٠). فكلّ تركيب خرج عن القواعد المعتادة لأصول الجملة المعهودة فهو انزياح تركيبي. ومن المستحسن أن يحمل هذا الانزياح في كل علاقة من علاقاته قيمة أو قيمًا جمالية بما يتجاوز إطار المألوف.

هذا الانزياح يتعلق بكل ما خالف موقعه في النص حسب النظام اللغوي النحوي ويتمثل في: التقدّم والتأخر، والحذف والإضافة، والانتقال من أسلوب إلى آخر، والالتفات والتضمين(زارع، وداربور،٢٠١١م،٦٩).

أ. التقديم والتأخير

واضح أن التقديم والتأخير وثيق الصلة بقواعد النحو، حتى أنّ كوهن سمّي الانزياح الناتج من التقديم والتأخير بـ((الانزياح النحوي))(محمد ويس،٢٠٠٥م،١٢٢). إن تتبع صور التقديم والتأخير يأخذنا إلى منحي أسلوبي مميز، بحيث يشكل خرقًا أو انزياحاً عن النمط المألوف لتركيب الجملة العربية(أبو العدوس،٢٠١٠م،١٨٦)من ظواهر التقديم، تقديم المفعول به علي الفاعل المتمثل في عبارة هذا الدعاء((ما اَسْتَوْجِبُ بِهِ كَرامَتَكَ))كان المفعول به ضميراً متصلاً بالفعل، قدم المفعول به((انا))علي الفاعل ((الله)) الذي ضمير متصل بالفعل. ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله عليه السلام:((لا يواري مِنْك لَيلٌ داجٍ))حيث قدّم ((مِنْك))(قيومي اصفهاني،١٣٨١ه.ش،١٥٨) علي الفاعل وهو((لَيلٌ)) وكذلك في ((لهُ الحمد)) قدّم ((له)) وهو الجار والمجرور متعلق بخبر المحذوف وجوبًا علي المبتدأ لإفادة الاختصاص، ففي هذه النماذج انزاح الإمام عن البنية السطحية إلى البنية العميقة.

ب. الحذف والإضافة

يدخل ضمن الانزياحات التركيبية الحذف والإضافة. لكن لا يعدّ كل حذف وإضافة انزياحًا بل إذا حقّقا غرابة ومفاجأة أو حملا قيمةً جماليةً فهذا يعدّ انزياحاً تركيباً(محمد

ويس،٢٠٠٥م،١٢٥). تظهر ظاهرة الحذف في كلام الإمام عليه السلام:((يا مُطْفِئَ الأنْوارِ بِنُورِه، وَيا مانِعَ الأبْصارِ مِنْ رُؤْيتِه..)) (قيومي اصفهاني،١٣٨١ه.ش،٢٩) حذف من الكلام الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى وسبب العدول عن ذكر الفاعل في كلا الموضعين بيان عظمة الله وكثرة نعمائه وانزاح الإمام عن القواعد المعهودة في النحو، وهي عدم جواز حذف الفاعل في ((يا مُطْفِئَ الأنْوارِ)) وحجتنا في صحة هذا الحذف وقوعه في كلام الإمام محمد الباقر عليه السلام، لأنه أفصح العرب في زمانه.

كذلك نري إطناب الكلام وزيادة أجزاء يمكن حذفها، فالإمام حين يناجي الله في تحميد الله سبحانه وتعالى، فهو يخاطب ربّه قائلاً: ((يا مَحَلَّ كُنُوزِ أَهْلِ الْغِنَى وَ يا مُغْنِيَ أَهْلِ الْفَاقَةِ مِنْ سَعَةِ تِلْكَ الْكُنُوزِ بِالْعَائِدَةِ إِلَيهِمْ وَ النَّظَرِ لَهُمْ يا اللَّهُ لَا يسمَّى غَيرُكَ إِلَهاً إِنَّمَا الْآلِهَةُ كُلُّهَا مَعْبُودَةٌ دُونَكَ بِالْفِرْيَةِ وَ الْكَذِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يا سَادَّ الْفَقْرِ وَ يا جَابِرَ الْكَسْرِ وَ يا كَاشِفَ الضُّرِّ وَ يا عَالِمَ السَّرَائِرِ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ وَارْحَمْ هَرَبِي إِلَيكَ مِنْ فَقْرِي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْحَالِّ فِي غِنَاكَ الَّذِي لَا يفْتَقِرُ ذَاكِرُهُ أَبَداً أَنْ تُعِيذَنِي مِنْ لُزُومِ فَقْرٍ أُنْسَى بِهِ الدِّينَ أَوْ بِسُوءِ غِنًى أُفْتَتَنُ بِهِ عَنِ الطَّاعَةِ بِحَقِّ نُورِ أَسْمَائِكَ كُلِّهَا أَطْلُبُ إِلَيكَ مِنْ رِزْقِكَ كِفَافاً لِلدُّنْيَا تَعْصِمُ بِهِ الدِّينَ لَا أَجِدُ لِي غَيرَكَ مَقَادِيرُ الْأَرْزَاقِ عِنْدَكَ فَانْفَعْنِي مِنْ قُدْرَتِكَ فِيهَا بِمَا تَنْزِعُ بِهِ مَا نَزَلَ بِي مِنَ الْفَقْرِ يا غَنِي يا مُجِيبُ.))(المصدرنفسه،٤٢) جاء بكلمة ((اَهْلُ)) مرتين، وانزاح عن عطف((الفاقة)) إلى((الفقر)) لأنّ الجملة منبئة عن كمال الهيبة. كذلك في فقرة أخري من هذا الدعاء يقول: اَلْحَمْدُللّه مُحيِث الْحَيث، وَمُكيف الْكيف، وَمُؤَيِن الأيِن،...)) فمعني المفردتين ((مُكيف)) و((الْكيف)) قريب جداً في هذه العبارة. والإطناب في عبارة((يا ذَا الَّذي كانَ قَبْلَ كلِّ شَيءٍ، ثُمَّ خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، ثُمَّ يبْقي وَيفْني كلَّ شَيءٍ، وَيا ذَا الَّذي لَيسَ في السَّماواتِ الْعُلي وَلا في الأرَضينَ السُّفْلي وَلا فَوْقَهُنَّ، وَلا بَينَهُنَّ وَلا تَحْتَهُنَّ الهٌ يعْبَدُ غَيرُهُ)) و(المصدرنفسه،٤٢) اضح مبرهن، فإنّ الامام محمد الباقر عليه السلام في مقام الدعاء ومناجاة الله ويري لذة في بسط الكلام مع محبوبه ومعبوده.

الالتفات

إن الالتفات أسلوب من الأساليب البلاغية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بظاهرة الانزياح اللغوي؛ لأنه ظاهرة أسلوبية تمثل خروجاً عن اللغة المعيارية، أو انتهاكاً للصياغة المألوفة في الاستعمال العادي للغة؛ لهذا سنلاحظه من خلال تتبع المعني اللغوي والاصطلاحي لهذه

الظاهرة. إن الالتفات، مادته "لفت" من باب الافتعال أي صَرَف. قال ابن منظور: لَفَتَ وجهه عن القوم: صرفه والتفت التفاتاً والتلفُّت أكثر منه وتلفَّت إلى الشيء والتفتإليه: صرف وجهه إليه.(ابن منظور،١٩٧٩م،مادة لفت) أمّا اصطلاحاً، فهو تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر أو الانتقال بالأسلوب من صيغة التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغة أخري من هذه الصيغ، علي أن يعود الضمير الثاني علي نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأول، وبعبارة أخري أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه.(حسين،١٩٨٤م،٢٨٠) قال السكاكي: ((وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم أو للحذاق والمهرة في هذا الفن والعلماء، ومتي اختص موقعه بشيء من دلك كساه فضل بهاء ورونق. وأورث السامع زيادة هزة ونشاط ووجد عنده القبول أرفع منزلة.))(السكاكي،١٩٩٠م،٩٦) والالتفات يؤثر في السامع فيحثه علي المتابعة والتفكير؛ لأن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن لنشاط السامع للإصغاء إليه كما فيه عنصر جذب وتشويق للسامع. ولقد تنوع أسلوب الالتفات في سورة الحديد ليضفي إلى البناء الفني عناصر جمالية ومن هذا التنوع:

أولاً. الالتفات بالضمائر

ورد الالتفات بالضمائر بأنماط مختلفة في هذا الدعاء للإمام الباقر عليه السلام منه الالتفات من المتكلم إلى المخاطب. ورد هذا النوع من الالتفات في ثلاثة مواضع من الدعا ويتمثل في قوله عليه السلام: ((حَجَبْتُ عَنّي شُرُورَ جَبّارِي الْهَواءِ، وَمُسْتَرِقِي السَّمْعِ مِنَ السَّماءِ، وَحُلاّلِ الْمَنازِلِ وَالدِّيارِ، وَالْمُتَغَيِّبينَ بِالاَسْحارِ، وَالْبارِزينَ في اَظْهارِ النَّهارِ حَجَبْتُكُمْ، وَزَجَرْتُكُمْ مَعاشِرَ الْجِنِّ وَالانْسِ بِاَسْماءِ اللّهِ الْمَلِكِ الْجَبّارِ، خالِقِ كلِّ شَيءٍ بِمِقْدارٍ، لا تُدْرِكُهُ الاَبْصارُ، وَهُوَ يدْرِكُ الاَبْصارَ، وَهُوَ اللَّطيفُ الْخَبيرُ))(قيومي اصفهاني،١٣٨١ه.ش،٧٢) ترتبط عملية العدول عن ضمير المتكلم أنا في (حَجَبْتُ) إلى ضمير المخاطب الجمع(حَجَبْتُكُمْ،)

ثانياً. الالتفات من صيغة الماضي إلى المضارع

ورد هذا النوع من الالتفات في موضع واحد من دعاء الامام الباقر عليه السلام هو في قوله:((اَللّهُمَّ انَّك وَهَبْتَنا اَجَلَّ شَيءٍ عِنْدَك، وَهُوَ الايمانُ بِك مِنْ غَيرِ سُؤالٍ فَلا تَحْرِمْنا ما دُونَ ذلِك مِنَ الْغُفْرانِ مَعَ الْمَسْاَلَهِ وَالابْتِهالِ)) (المصدرنفسه،٧) موضع الالتفات هو في

قوله عليه السلام(تَحْرِمْنا) بعد أن كان بصيغة الماضي في قوله:(وَهَبْتَنا) فالفعل الماضي يدل علي حتمية وقوعه، يتبعه الفعل المضارع المتميز بقدرته علي التصوير ومن طبيعته التجدد والتغير.

ثالثاً. الالتفات بالعدد

غالبا ما لا نجد فرقا في الدلالة والمعني بين اللفظ في حالتي الإفراد والجمع، ولكن في ألفاظ الصحيفة الباقرية المعجزة هناك تحول كبير في دلالة اللفظ وتباين في معناها في الجمع وفي الأفراد فقد تأتي اللفظة في موضع بصيغة الجمع ويعدل عنها في موضع آخر إلى صيغة الإفراد ولكل حالة معناها المستقل تبعا للسياق الذي وردت فيه من المستويات التي يظهرها الالتفات ما يمثل في الجمع والفرد ومثل ذلك في قوله عليه السلام: ((يَا مُزِيلَ قُلُوبِ الْمَخْلُوقِينَ عَنْ هَوَاهُمْ إِلَى هَوَاهُ وَ يَا قَاصِراً أَفْئِدَةَ الْعِبَادِ لِإِمْضَاءِ الْقَضَاءِ بِنَفَاذِ الْقَدَرِ ثَبِّتْ قَلْبِي. عَلَى طَاعَتِكَ وَمَعْرِفَتِكَ وَرُبُوبِيَّتِكَ وَأَثْبِتْ فِي قَضَائِكَ وَقَدَرِكَ الْبَرَكَةَ فِي نَفْسِي..)) (المصدر نفسه، ٢٨) بداية كان الحديث عن القلوب، وهو بالطبع جمع فينتقل إلى المفرد وهو قلبي.

رابعاً. الالتفات المعجمي

((الالتفات في هذا المجال بين الألفاظ التي تتداخل دوائرها الدلالية بحيث تتلاقي في مساحة أو قدر مشترك من المعني، ثم ينفرد كل منها ببعض الخصوصيات أو الطاقات الإيحائية التي لا يشاركه فيها سواه، فطرفا العدول في هذا المجال هما لفظان يشتركان فيما يطلق عليه العلماء المعاصرون الدلالة المركزية)) (طبل،١٩٩٨م،١٥٩) نود في هذا الدعاء أن نتأمّل بعض المواطن الأدعية التي تتمثل فيها صورة العدول في هذا المجال ومن ذلك مثلا قوله عليه السلام: ((اَعُوذُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ، رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، مِنْ كلِّ عِرْقٍ نَعّارٍ، وَمِنْ شَرِّ حَرِّ النّارِ)) فالربّ معجمياً يطلق علي الله وغيره من الذين يملكون اختيارات لكن الدعاء كما نري قد آثرت لفظة الله وهو المعبود الحقيقي ثم عدل عنها إلى الرب. وأيضاً قوله عليه السلام: ((اَشْهَدُ اَنْ لا الهَ الاَّ اللّهُ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَاَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، امَنْتُ بِاللّهِ، وَكَفَرْتُ بِالطّاغُوتِ وَبِاللاّتِ وَالْعُزّي، وَبِعِبادَهِ الشَّيطانِ، وَبِعِبادَهِ كلِّ نِدٍّ يدْعي مِنْ دُونِ اللّهِ.)) (قيومي اصفهاني،١٣٨١هـ.ش،٣٤)معلوم من أن المراد بالرسول في الدعاء هو بعينه المراد بالعبد.

٣) الانزياح الإيقاعي

الدراسة الصوتية تعد المحور الأول للدخول إلى النص الأدبي وبداية الولوج إلي عالمه وفهمه وإحساس بوعي لما فيه من قيم جمالية، فالصوت هو الوحدة الأساسية للغة التي يتشكل منها النص الأدبي، لأنَّ الألفاظ أصوات ذات جرس نتخذها كوسيلة للتعبير عن الدلالات أو الخواطر التي تجول بأذهاننا.(الخولي،١٩٦١م،٢٦٧) إن منابع الموسيقى الظاهرة في الكلام الأدبي معروفة تماما، فهناك أولا: الموسيقي النابعة من تآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة، والحروف أصوات متفاوتة الجرس، يقرع بعضها بعضا حين تجتمع في اللفظ، وينتج عن تناغم قرعها سلم موسيقي جميل. ثانيا: الموسيقي النابعة من تآلف مجموعات الموسيقي اللفظية حين ينتظمها التركيب في الفقرات والجمل، فالألفاظ المفردة تقرع الألفاظ المفردة المجاورة لها سابقا ولاحقا، وينجم عن تناسق تقارعها سلالم موسيقية جميلة.(المصدرنفسه،١٢٢) وتستند موسيقي التركيب النثري في الصحيفة الباقرية على مرتكزين: أولاً: انسجام الألفاظ وتآلف أصواتها، وقد بحثه القدماء تحت عنوان فصاحة الألفاظ مفردة ومجتمعة. ثانياً: الإيقاع الموسيقي الذي ينشأ من وجود بعض المحسنات البديعية في التركيب.

أ. تلاؤم اللفظ مع المعني

يتناول المستوي الصوتي تلاؤم اللفظ مع المعني من حيث موسيقي الحروف كما قال الإمام الباقر عليه السلام: ((لا مَنْجا لَكمْ جَميعا مِنْ صَواعِقِ الْقُرْانِ الْمُبينِ، وَعَظيم اَسْماءِ رَبِّ الْعالَمينَ، لا مَلْجَاَ لِواردِكمْ وَلا مُنْقَذَ لِهاربِكمْ مِنْ رَكسَه التَّثْبيطِ، وَنَزاعِ الْمَهيطِ وَرَواجِسِ التَّنْجيطِ فَرائِعُكمْ مَحْبُوسٌ، وَنَجْمُ طالِعكمْ مَنْحُوسٌ مَطْمُوسٌ..)) (قيومي اصفهاني،١٣٨١هـ.ش،٧٢) جاء في هذا الدعا في الإحتجاب، والإحتراز، والتعويذ كلمات مَحْبُوسٌ، مَنْحُوسٌ مَطْمُوسٌ

نتائج البحث:

إنّ الصحيفة الباقرية أثر بين أيدينا من أهل بيت رسول الله. هذا الكتاب القيم لا يكون أسوة في الدعاء فحسب، بل تحتوي نصوصه معارف وعلومًا في مجالات علمية، أخلاقية، سياسية، أدبية و... طبقاً لما عالجناه في أسلوبية الانزياح في هذا الكتاب، يمكننا الإشارة إلى ما وصلنا إليه:

هذا الكتاب الشريف رغم البعد الزماني الشاسع بينه وبين العصر الحديث، له استعداد ذاتي لتطبيق معلومات حديثة في إطار الأسلوبية بصورة عامة والانزياح بصورة خاصة.

تتجلّي غايات الانزياح بنوعيها الاستبدالية والتركيبية في الصحيفة، منها تأدية معانٍ دلالية تكون أعمق وأبلغ وأشد تأثيراً علي النفوس في حالة الخروج علي قواعد اللغة وظوابطها، فإنّ عملية الانزياح تؤثر في القائل والنص والمخاطب.

من أهداف الانزياح تحقيق البعد الجمالي في الأدعية عن طريق التلاؤم والجناس بين المفردات والتعدي من المعاني العقلية إلى المعاني الحسية، فالمجاز اللغوي يؤدي وظائفه التعبيرية بدرجة أقوي وأوضح من الاستعمال الحقيقي للألفاظ.

يهدف الانزياح إلى شدّ انتباه القارئ أو السامع ومفاجأته بشيء جديد عن طريق الخروج عن قواعد النحو، كعدول الإمام عن القواعد المألوفة، منها حذف وإضافة وكذلك إلى إضفاء صور إيحائية علي الموضوع تعبر عن مواطن جمالية خفية في النص عن طريق التشبيه والاستعارات والمجاز.

أمّا التناوب في الجمل فالغرض منه إقامة الجملة مقام الجملة الأخرى وهو النمط الذي بديع في نوعه ولايأتي إلا للتوسع في المعاني

التي لانراها في البنية العميقة؛ المعاني الدقيقة التي يرينا السياق والبنية السطحية والمستوي الفني من الكلام. كان الإيجاز والتوسع في المعاني، نقطة مشتركة من جمالية التناوب في الصحيفة الباقرية بأسرها.

هوامش البحث ومصادره

وخير ما نبتدئ به القرآن الكريم

١. ابن جني، عثمان، الخصائص، تحقيق: علي النجار وآخرون، دار الهدي، بيروت، لاتا.

٢. ابن منظور، محمد، لسان العرب، مكتبة دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م.

٣. أبو العدوس، يوسف، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، المسدّي، عمان، ٢٠١٠م.

٤. بليت، هنريش، البلاغة والأسلوبية، ترجمة، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩م.

٥. بولحواش، سعاد، شعرية الانزياح بين عبدالقاهر الجرجاني وجان كوهن، رسالة الماجيستر، إشراف: محمد زرمان، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب واللغات الأجنبية، الجزائر، ٢٠١٢م.

٦. تحريشي، محمد، أدوات النص، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق،٢٠٠٠ م.

٧. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، صححه ضبطه وعلق عليه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٨ م.

٨. حسين، عبد القادر، فن البلاغة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤ م.

٩. الخولي، أمين، مناهج تجديد في النحو البلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، لامك، ١٩٦١ م.

١٠. الرماني، علي بن عيسي، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، لاتا.

١١. زارع، آفرين وداربور، ناديا، ((الإعجاز البياني للقرآن الكريم من خلال أسلوبية الانزياح، دراسة وصفية ـ تطبيقية)). مجلة الدراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد٥، ٢٠١١م.

١٢. سامح ربابعة، موسي، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، جامعة الكويت، كويت، ٢٠٠٣ م.

١٣. السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٩٠ م.

١٤. شفيعي كدكني، محمد رضا، موسيقي شعر، مؤسسة انتشارات آگاه، تهران، ١٣٨٦ ش.

١٥. صفوي، كورش، از زبان شناسي به ادبيات، نشر چشمه، تهران، ١٣٧٣ ش.

١٦. طبل، حسن، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٧. عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، دار نوبار، القاهرة، ١٩٩٤ م.

١٨. قيومي اصفهاني، جواد، ترجمه صحيفه باقريه، جامعه مدرسين حوزه علميه قم، دفتر انتشارات اسلامي، قم، ١٣٨١هـ.ش.

١٩. محمد ويس، أحمد، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، انتشارات مجد، بيروت، ٢٠٠٥م.

٢٠. مرادي، محمد هادي وقاسمي، مجيد، ((الردّ علي منظّري انزياحية الأسلوب، رؤية نقدية))، فصلية إضاءات نقدية، العدد الخامس، ٢٠١٢م.

٢١. ويس، أحمد محمد، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م.